

التجديد والتقليد عند الشيخ المكي ابن عزوز

د. عبد اللطيف البوعزيزي

جامعة الزيتونة - تونس -

مقدمة

إن جامع الزيتونة ذاك الطود الشامخ ذا الجذور الممتدة في عمق التاريخ (تزيد على أربعة عشر قرناً) والفروع المتشابكة مشرقاً ومغرباً، ذاك الصرح الذي أنار العقول وأضاء الدروب على امتداد مسيرته الطويلة، يُنظر إليه أحياناً بعين تستصغر دوره وتقلل جهود علمائه، ولعل السبب في ذلك يعود إلى التقصير في جيلنا الذي أهمل ميراث أجداده ولم يعرف به، فيظهر أهمية رجالات الزيتونة وأثرهم البين في التجديد والإصلاح، وقد أدرك هذا المعنى فضيلة الشيخ العلامة محمد الفاضل ابن عاشور عندما قال في مقدمة كتابه "تراجم الأعلام": " لأشد ما يؤلم ذا الشعور الحي والنفس اليقظة من ذلك الكابوس العجيب الذي نزل على التاريخ التونسي في أحداثه وآثاره ورجاله، فلزّه إلى زاوية الإهمال وكساه ثوب الذبول والخمول، وضرب عليه التلاشي والضياع وألزمه انعدام المصادر وفقدان التأليف وتعطيل البروز لرجاله شرعاً سائغاً والطمس لمعالمه حقاً مرعياً..."

لذلك نرى العديد من الطلبة والباحثين الراغبين في دراسة المصلحين والمفكرين يتجهون إلى مدارس مشرقية أو مغربية ويغفلون عن أعلام "زيتونتنا" كأنها عقيم، لا تتجب...

وما هذه المداخلة حول علم من أعلام الزيتونة المجددين إلا محاولة لإبراز الجهود المباركة لهؤلاء العلماء الأفذاذ الذين لم يأخذوا حظهم من الدراسة والتعريف بفكرهم المستنير.

حياته :

*اسمه: محمد المكي بن محمد بن عزوز الحسني الإدريسي المالكي.(1)

*ولد بنفطة سنة 1270هـ-1854م.

* أصله من قرية تسمى البرج من قرى وادي سوف بواحات العرق الشمالي الشرقي في الصحراء الكبرى، هذه القرية تابعة الآن لولاية سكرة، وإن ينسب إليها أحيانا، فقليل: "الشيخ محمد المكي بن عزوز البرجي".

قدم والده إلى نفطة التي كانت مع توأمتها توزر أهلتين بالعلم زاخرتين بالأدب حتى اشتهرتا باسم الكوفة والبصرة.

وأسس بها الزاوية العزّوزية (زاوية سيدي مصطفى) على الطريقة الرحمانية، وبنى فيها مدرسة جلب لها العديد من العلماء.

*طلبه للعلم:أخذ العلم من علماء هاتين الحاضرتين أمثال عمه الشيخ محمد المدني ابن عزوز والشيخ النوري بن بلقاسم النفطي والشيخ ابراهيم البختري التوزري، ثم ارتحل إلى تونس سنة 1292هـ، فأخذ العلم من أقطاب الزيتونة وأعلامها أمثال الشيخ الإسلام محمد الشاذلي بن صالح وشيخ الإسلام سالم بوحاجب وعمر ابن الشيخ المفتي المالكي ومحمد النجار المفتي المالكي أيضا ومصطفى رضوان.

رحل إلى الجزائر واتصل بالشيخ محمد ابن أبي القاسم صاحب زاوية بوسعادة المعروفة بزاوية الهامل، فاتخذة شيخ سلوك وتربية.

امتاز بسعة اطلاعه وحدة ذكائه وبرّز في علمي الفقه والحديث حتى قال عنه الكتاني في فهرس الفهارس "كان مسند أفريقية ونادرتها، لم نر ولم نسمع فيها بأكثر اعتناء منه بالرواية والإسناد والإتقان والمعرفة ومزيد تبحر في بقية العلوم...(2) و كل من يطلع على قائمة مؤلفاته يدرك صدق هذه الشهادة.

(1) لمزيد التفصيل يرجى الرجوع للمصادر التالية: "شجرة النور الزكية" لمحمد مخلوف، و"فهرس الفهارس" لعبد الحي الكتاني 856/3، ومعجم المؤلفين: لعمر رضا كحالة، و"الأعلام" للزركلي، و"تراجم الأعلام" للعلامة الشيخ الفاضل ابن عاشور، و"رسائل المكي ابن عزوز"، و"محمد المكي ابن عزوز" : حياته وآثاره وكلاهما لعلي رضا الحسيني.

(2) فهرس الفهارس، 856/3.

ولقد قال عن نفسه: "قد ربيت في معهد العلم من صغري، وقد وسع الله علينا من رزقه، ما سهل به القراءة زمان التعلم والإقراء على شيوخ عديدة على اختلاف مشاربهم وتفاوت درجاتهم تفننا وأخلاقا، وارتحلت إلى بلدان عديدة، فجمعت بعض ما كان متفرقا من العلوم والحمد لله..." (3).

وفي سنة 1309هـ (انتقلت عائلته من نفطة إلى مدينة تونس وسكن بها إلى حين سفره إلى المشرق).

سافر إلى المشرق سنة 1316هـ وبدأ بطرابلس الغرب ثم بنغازي، ثم مصر والشام، واستقر به المقام في دار الخلافة اسطنبول، التي ظل بها إلى أن توفاه الله يوم الخميس الثاني من صفر سنة 1334هـ (1915م).

المناصب والوظائف:

- تولى افتاء مدينة نفطة في عهد الوزير خير الدين، سنة 1297هـ، وعمره ست وعشرون عاما واعتزلها بعد سنتين.
- تولى القضاء سنة 1305هـ في نفس المدينة.
- وتصدّر للتدريس بجامع الزيتونة، وامتازت دروسه بكثرة الإقبال وغازاة المادة رغم أنه لم يتقلد منصبا رسميا من مناصب التدريس، كما كانت له حلقات علمية في العديد من المساجد منها جامع "الهواء" الذي درّس فيه "الهمزية وجامع "المر" الذي درس فيه "مقامات الحريري".
- عُيّن بالأساتنة مدرسا للحديث الشريف بدار الخير سنة 1324هـ، التي أبدل اسمها بعد سنة من تأسيسها إلى دار الفنون، ولما أنشئت مدرسة الوعاظ (الواعظين) عين فيها أيضا مدرسا، وكان يلقي دروسه باللغتين العربية والتركية.

(3) محمد المكي ابن عزوز: حياته وآثاره: 87.

نضاله السياسي:

لقد كان لجامع الزيتونة - علاوة على دوره في نشر العلوم والمعارف - الأثر البارز في غرس الروح الأبية في نفوس طلابه، "فاصطبغ خريجوه بصبغة الولاء لمجد العروبة والإسلام ومن هنا كانوا هم المشاعل النيرة التي أضاءت طريق الجهاد ضد المستعمر الفرنسي البغيض. لقد كانت الزيتونة ممثلة في شخص علمائها وأبنائها وخريجائها في الصف الأمامي على خط المواجهة مع العدو. إذ أجج شعلة الجهاد ضد الفرنسيين فور احتلالهم تونس عام 1881 هـ مشايخ من أهل العلم والفضل والدين فقاد حركة المقاومة الشيخ محمد السنوسي حتى نفقه السلطات الاستعمارية إلى الخارج فحمل راية الجهاد من بعده الشيخ محمد المكي بن عزوز وكان من مشايخ الزيتونة الثوريين"⁽⁴⁾، ولقد كان الشيخ المكي من أصحاب خير الدين باشا وتلميذا ثم صديقا للشيخ سالم بوحاجب زعيم الإصلاح. ويوجد له بالأرشفيف الوطني وثائق تتضمن تقارير لأجهزة الأمن الفرنسي تدل على أنه كان تحت الرقابة المستمرة داخل تونس أو خارجها وخاصة الجزائر، وتونس، ومصر، وتركيا.

مؤلفاته:

ترك قرابة التسعين (90) كتابا، بين مخطوط ومطبوع⁽⁵⁾، لكن العديد منها اليوم مفقود، ولعل السبب يعود إلى انتقالها بعد وفاته إلى مكتبات خاصة، حيث لم تحفظ في مراكز عمومية للبحث، ويقول في ذلك علي الرضا الحسيني: "ولعل فقدانها يعود إلى غربة الشيخ محمد المكي في اسطنبول ووفاته فيها دون أهل أو ولد إلى جانبه - على ما يظهر - ذكر لي أحد العلماء أن المكتبة الخاصة للشيخ المكي قد نقلت من اسطنبول إلى تطوان وبيعت هناك..."⁽⁶⁾

⁽⁴⁾ انظر: الأرشفيف الوطني، ملف الحركة الإسلامية في تونس، دور الزيتونة في مجاهدة الاستعمار الفرنسي.

⁽⁵⁾ تراجم المؤلفين التونسيين لمحمد محفوظ 3، 379...381، أما صاحب إيضاح المكنون في النيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، فقد عد له أكثر من ست وستين مؤلفا.

⁽⁶⁾ محمد المكي ابن عزوز حياته وآثاره: 24.

ومن أهم هذه المؤلفات :

* أصول الحديث (مطبوع)

* الأجوبة المكية عن الأسئلة الحجازية. نظم (مطبوع)

* السيف الرباني في عنق المعترض على الغوث الجيلاني (مطبوع)

* عقيدة الإسلام (مطبوع)

* هيئة الناسك في أن القبض في الصلاة هو مذهب الإمام مالك (مطبوع)

* وسيلة الأمان في ترجمة سيدي علي بن عثمان (مطبوع)

* النفحات الرحمانية في مناقب رجال الخلوتية (مطبوع منه: المقدمة والمدخل)

* التقرار المذهب في حل تراجم الجوهر المرتب (مطبوع)

* الدراية فيما ليس برأس أية (مطبوع)

* الذخيرة المكية في الخزانة المدنية (مطبوع)

* مغنم السعادة في فضل الإفادة على العبادة (مطبوع)

* نظم الجغرافية التي تتحول بمغالبة الدول

* تعديل الحركة في عمران المملكة

* عمدة الإثبات (في رجال الحديث)

* إرشاد الحيران في خلاف قالون لعثمان

* الجوهر المرتب في العمل بالربع المجيب

* الحق الصريح في المناسك على القول الصحيح

* رفع النزاع في بيان معنى التقليد ومعنى الاتباع

* رد المذاهب فيما يقلد وما يُقَلَّد من المسائل المذاهب

* إسعاف الإخوان في جواب السؤال الوارد من داغستان

* أصول الطرق وفروعها وسلاسلها

* إقناع العاتب في آفات المكاتب

* انتهاز الفرصة في مذاكرة متفنن قفصة

الفرق بين التقليد والاتباع:

يرى الشيخ المكي أن هناك ثلاث مراتب:

1- الاجتهاد

2- الاتباع

3- التقليد

ونقل عنه ابنه مصطفى التفريق بين التقليد والاتباع في كتابه "حياض الورود"⁽⁷⁾، فقال إن "التقليد هو أخذ قول القائل بلا حجة، أعني أن قائلها المجتهد اعتمد على حجة ظهر الاعتماد عليها، لكن مقلده لا يعرف حجة متبوعة، وبذلك يسمى مقلدا. فإن عرف حجته فقد خرج عن التقليد، لأن تعريف التقليد لا ينطبق عليه، فهو ليس مقلدا، لأنه عرف الحجة، وليس مجتهدا.

لأنه ما نسج أنملة في ثوب تلك المسألة، ولكن هو تابع لذلك المجتهد، وناقل لمذهبه محفوا بدليله، وهذه هي وظيفة العالم، وأما محض التقليد، وظيفه العامي لأنه لا يفهم تنزيل الأدلة على المسائل. فالطبقات ثلاث : علماء مجتهدون... وعامة وهم المقلدون القاصرون عن فهم الدليل، والطبقة الثالثة: الوسطى وهم العلماء العارفون بالدليل، وهذا هو العلم، لأن التقليد ليس بعلم اتفاقا فأصحابه مجازا لا حقيقة كما قاله ابن عبد البر وغيره. وبقيت وظيفة أخرى للطبقة الوسطى فمن فوقهم، وهي النظر في المسائل التي احتج بها المخالفون في مسائل الخلاف فمن أدرك قوة الدليل حرّم عليه اتباع القول المرجوح لاسيما إن كان الدليل حديثا صحيحا صريحا، ولعله لم يبلغ إمامه الذي هو مقتد به، فاجتهد كما هو الواجب عليه لفقد النص، وقد ثبت من طريق أخرى فهو معذور ومأجور، ولو أخطأ وهو إن اتبعه ونبذ الحديث وراءه ظهريا فقد أثم وارتكب كبيرة... وإمامه غير راض عنه، بل خصمه يوم القيامة، لقول كل من الأئمة الأربعة رضي الله عنهم :إذا صح الحديث فهو مذهبي... هكذا قرره والدنا يرحمه الله"ومما يعيبه الشيخ ابن عزوز على المقلدين في عصره تمسكهم برأي الإمام، والبحث عن الأدلة لنصرتهم فإن وافق الرأي ظاهر حديث قالوا لا نقدم على النص شيئا، وإن خالف الحديث، قالوا قد يقدم الرأي

⁽⁷⁾ حياض الورود، وهو مخطوط يقول في مقدمته "وهو مخطوط، يقول في مقدمته : "أما بعد : فيقول أفقر الوري إلى ربه، محمد مصطفى بن محمد المكي ابن عزوز الحسني الإدريسي المالكي الأشعري السلفي الأثري: هذا شرح نفيس وضعته على الكتاب المسمى ب "المنتقى من السنن" تأليف الإمام الحافظ، مولانا أبي محمد عبد الله بن علي بن الجارود النيسابوري تغمده الله برحمته، وأسكنه فراذيس جنته، سميّه "حياض الورود شرح منتقى ابن جارود".

على النص أحياناً، فقال عنهم : "ومن الخلق الذميمة الذي اتصف به كثير من حذاق المقلدين أنهم إذا جاءت مناسبة في تعارض الحديث والرأي يقولون: يحرم العمل بالرأي إذا خالف النص، ويظهرون الجزم بذلك، هذا مقالهم عند الإجمال، فإذا ذكرنا مسألة جزئية من تلك المسائل لا تسمح نفوسهم بفعل ما قالته ألسنتهم، وترى وجوههم تمحّرت وصار أبرعهم يُنقب يميناً وشمالاً في القواعد الأصولية لعله يجد ما يرد به الحديث أو يؤوله، والمراوغة لائحة على أسارير جنبه.⁽⁸⁾

نقده لظاهرة الجمود الفكري:

من الظواهر التي حاربها الشيخ المكي ابن عزوز بشدة، وسعى إلى إزالتها وتطهير المجتمع من ضررها الجمود الفكري والفهم الأبتري للحكم الشرعي والتوظيف المشوه للأدلة الشرعية، ويبدو أنه انتشر واتسع تأثيره في المشرق والمغرب على حد سواء، ولقد أدرك خطر هذا الفهم على الفكر الإسلامي وأثره السيئ على المسلمين عموماً، فانتشار هذا النمط من التفكير محبط للهمم، قاتل للإبداع، مفسد للنهضة العلمية، لذلك اشتد إنكاره له، وقاومه بكل عزم وحزم، وشهر بأهله، وخير دليل على ذلك ما جاء في رسالته للبيطار، والتي قال فيها: "فلا أجد من أطارحه مسائل العلم الصحيح، لأن الناس بالنظر إلى هذا المقام على قسمين :- جاهل لم يزاوِل العلم أصلاً، فهو لا يفقه ما نقول، وحسبه إن سأل أن أجيبه بزبدة الحكم، وهو أحب إلي ممن عرف بعض العلم إن لم يفقه فائق، لأنه وإن لم أستفد منه مذاكرة تفكه عقلي، وتنقح نقلي، فقد أفادني من الله أجراً، وقد يكون لغيره سلسبيل تلك إفادة أخرى.- والقسم الثاني: طالب علم زاول العلم فشم رائحته وجمد على ما عهد من شيخ مثله، فهذا أحسن أخلاقه أن لا يسمع لقولك ولا يتحدث بما يؤذي، وإنما قلت أحسن، لأن غيره من أهل العناد الحمقى يضللون من خالف ما اعتادوه. سنلت مرة في مجلس: هل تجوز الاستغاثة بأولياء الله؟ فقلت : لا

(8) حياض الورود - خ-

يستغاث إلا بالله. وفي المجلس شيخ كبير ممن يعاني تدريس العلم عارضني بأنه يجوز، فقلت له: ما دليلك؟ فقام مغضبا قائلا: دليلي قول اللقاني: وأثبتن للأولياء كرامة ومن نفاها فانبذن كلامه فانظروا الدليل وتنزيله على الاعتراض، هؤلاء لا يفرقون بين معنى الاستغاثاة، ومعنى الكرامة، وهو من الضروريات... وأكثر الشيوخ جامدون على ما ألفوه، ومن أحبارهم ورهبانهم عرفوه، ولا أدري: هل ذلك لطول قعودهم في أرض التقليد. صاروا كمن دقت له أوتاد والتحمت تلك الأوتاد بالأرض، فلا يستطيعون النهوض منها؟ أم لأن غالب الشيوخ أكبر مني سنا؟ فهم يأنفون من أن يستفيدوا ممن هو أصغر منهم؟ أم كيف الحال؟⁽⁹⁾

نقده لظاهرة القصور في الفهم (الفقيه الشمولي):

من الظواهر التي انتشرت في عهد الشيخ المكي انعدام التكوين الشمولي، فتجد الفرد يلم بجانب من العلوم الشرعية ويتمسك به، ويغفل عن سائر المباحث الشرعية الأخرى، ويعد عنه العامة من العلماء ويتصدى للتدريس والإفتاء فيضلل ويضل، وإن كان حسن النية، فالفقيه الحق هو من جمع بين فهم النصوص ومعرفة الحلال والحرام مع حسن النية والحرص على السنة وهجرا للبدعة. يقول في ذلك: "إننا نجد فقيها تقيا محبا للسنّة مبغضا للبدعة، متعففا من تناول الحرام واقفا موقف النصيحة والإرشاد للخلق، وحسن النية، لكنه جاهل بعبادات النبي صلى الله عليه وسلم، وما كان عليه من شؤونه كلها. وقد يكون عارفا بها أو ببعضها، ويترك المتابعة النبوية عمداً لأنها خالفت قول فقهاه، ولو تخبره بإصلاح عبادة أو تحرير حكم شرعي بنص نبوي ينفر منك نفرته من العدو، ورآك مخادعا، وربما اتخذك عوا مبينا بعد المحبة والصحبة ويحكم بضلالك، كل ذلك لغلوه في التقليد، ولا يخفي أن أولئك لا يقال لهم علماء إلا مجازا خلاف في ذلك كما قاله ابن عبد البر وغيره، وتجد آخر متفنا بعدة علوم، وربما يكون مطلعا على دواوين الحديث نبيها،

⁽⁹⁾ الرسائل المتبادلة بين القاسمي والألوسي، للأستاذ محمد العجمي، ص 101-110.

له همة تنبؤ به عن التقليد، يبالغ في تتبع الأدلة، فينقلب عن الدين وغيرته في اعتقاد تأثير الطبيعة، حتى ينكر معجزات الأنبياء، وينكر كونها خارقة للعادة... وبعض هؤلاء أيضا لهم حسن نية في تعديهم الحدود، فهذان الفريقان اللذان هما على طرفي نقيض، أحدهما مُفَرط، والآخر مُفَرط كلاهما يعدهما المغفلون من علماء الدين ولكل منهما أتباع وأنصار. (انعق بما شئت تجد أتباعا).⁽¹⁰⁾

نقده للتقليد:

من الظواهر التي قاومها الشيخ المكي التمسك برأي إمام المذهب والوقوف عنده وعدم تجاوزه، وإن خالف الكتاب وما صحَّح من السنة، واعتبار ما تجاوز ذلك ضلالا وهلاكاً، وقد كان أول عهده على هذا المنهج ثم اهتدى إلى أن الدليل مقدم على رأي الفقهاء، فلا يجوز عليه الخطأ والصواب على قول المعصوم الذي أوجب الله طاعته على كل مخلوق ولو كان صحابيا. ويقول في ذلك: "وإني أحمد الله تعالى على أن أنقذني من أسر التقليد، وصرت إذا رأيت تعنتهم واتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله أتلو قوله تعالى مذكرا لنفسي آلاء الله: (كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم)، لأنني كنت أرى قول فقيه: المعتمد كذا، أو استظهر شيخنا كذا، كأنه بين دفتي المصحف، والله بل أكد "استغفر الله"، لأنني أقول: الآية لا أفهمها مثله، ونظن كل كلمة قالها مالكي فهي من مقولات مالك أو حنفي فأبو حنيفة أو شافعي... إلخ.

والخروج عن الأربعة كالكفر ولو أیده ألف حديث. والحمد لله الذي عافانا مع بقاء احترامهم ومحبتهم في قلوبنا".⁽¹¹⁾

وكان الشيخ المكي يرى أن هذه الظاهرة قد استشرت في المغرب أكثر منها في المشرق فقال: " لا نعرف في بلادنا المغربية إلا التقليد الأعمى، فقد كنا نعد الفتوى بحديث البخاري ومسلم ضلالاً، وكما شدد علينا شيوخنا في ذلك، شددنا على تلاميذنا هناك، فالتاجر كما اشترى يبيع ويزيد المكسب، فمن ذلك أني عند

⁽¹⁰⁾ محمد المكي ابن عزوز: حياته وأثاره: 84.

⁽¹¹⁾ الرسائل المتبادلة بين القاسمي والألوسي، للأستاذ محمد العجمي: 110.

سفري إلى المشرق استعار مني ابن أختي الخضر ابن حسين-الذي لقيتموه في المدينة- (نيل الأوطار) للشوكاني، فما تركته حتى أقسم بالله أنه لا يتبعه فيما يقول، ومن ذلك أني وجدت في عام 1300 هـ كتاب: "الروضة النديّة" للسيد صديق حسن خانن يباع عند كتبي في مكسرة، اسمه الشيخ الأخضر السنوسي العقبي، فنهزته وزجرته، وقلت له: حرام عليك تبيع الروضة النديّة، فصار يعتذر بمسكنه كأنه فعل خيانة (12).

ولقد أشار العز بن عبد السلام إلى هذا المعنى عندما قال: "ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه، بحيث لا يجد لضعفه مدفعا، وهو مع هذا يقلده فيه، ويترك من شهد الكتاب والسنة والأقيسة الصّحيحة لمذهبه جمودا على تقليد إمامه، بل يتحيل لدفع ظواهر الكتاب والسنة، ويتأولها بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالا عن مقلده (بفتح اللام)... فالأولى ترك البحث مع هؤلاء الذين إذا عجز أحدهم عن تمشيه مذهب إمامه قال لعلّ إمامي وقف على دليل لم أقف عليه ولم أهتد إليه... ف سبحان الله ما أكثر من أعمى التقليد بصره حتى حمّله على مثل ما ذكرته، وفقنا الله لاتباع الحق أين ما كان وعلى لسان من ظهراه. (13)

ثناء العلماء عليه:

وصف الشيخ رشيد رضا الشيخ المكي ابن عزوز في المنار (عدد شوال 1482 هـ) بقوله بعد أن قرّط رسالته هيئة الناسك- {جزى الله المؤلف الجزاء الأوفى، فإنه لم يؤيد السنة على البدعة فقط، بل أيد الإصلاح الإسلامي بتأييد هذه السنة، وكشف شبهة البدعة عن وجهان وهكذا يكون نفع العلماء المستقلين الذين يكتفون بما ورثوه عن الآباء والمعاشر، بل يطلبون بأنفسهم الحق اليقين}.

(12) من رسالة للشيخ محمد المكي ابن عزوز أرسلها إلى مدير مجلة الكويت الشيخ عبد العزيز الرشيد.

انظر: محمد المكي ابن عزوز: حياته وأثاره 84.

(13) القواعد: 605-606.